باب البيان عن حدود الأدب
وما يجب على الأدباء من الفحص والطلب

اعلم أن أول ما يجب على العاقل المنفصل بصفته عن الجاهل، أن يتبعه ويميل إليه ويستعمله ويحرص عليه، مجالسة الرجال ذوي الألباب، والنظر في أفانين الآداب، وقراءة الكتب والآثار، ورواية الأخبار والأشعار، وأن يحسن في السؤال، ويتثبت في المقال، ولا يكثر الكلام والخطاب، إن سُئل عما يعلمه أجاب، وإن لم يسئل صمت للاستماع، ولم يتعرض لمكروه الانقطاع، فقد روي في الخبر المأثور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتهلك». والصمت أحسن بالرجل من الهذر في منطقه والكلام فيما لا يعنيه والتسرع إلى ما يكون على وجل منه. وقد قال بعض الشعراء:

يموت الفتى من عثرة من لسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

وقال أبو العتاهية:

إذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزًا ... فأنت عن الإبلاغ في القول أعجز
يخوض أناس في المقال ليوجزوا ... وللصمت عن بعض المقالات أوجز

وقال أيضًا:

قد أفلح الساكت الصموت ... كلام راعي الكلام قوت
ما كل نطق له جواب ... جواب ما تكره السكوت

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت»، وقال: «من صمت نجا». وكان أعرابي يجالس الشعبي، يطيل الصمت

فقال له يومًا: لم لا تتكلم؟ فقال: أسمع لأعلم، وأسكت فأسلم. وقال أبو هريرة: ثمرة القلب اللسان. وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: ما مبدي علم القلب وجهله؟ قال: اللسان. قال: فأين يلزم الصمت؟ قال: عند من هو أعلم منكم، وعند الجاهل إذا جالسكم، وقال بعض الشعراء:

تعاهد لسانك إن اللسان ... سريع إلى المرء في قتله
وهذا اللسان يريد الفؤا ... د يدل الرجال على عقله

وقال آخر:

استر النفس ما استطعت بصمت ... إن في الصمت راحة للصموت
واجعل الصمت إن عييت جوابا ... رب قول جوابه في السكوت

وقال أبو العتاهية:

لا خير في حشو الكلا ... م إذا اهتديت على عيونه
والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

وقال لقمان لابنه: يا بني إن غلبت على الكلام فلا تغلب على الصمت، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، إني ندمت على الكلام مرارًا ولم أندم على الصمت مرة واحدة. وقال إبراهيم بن المهدي في هذا المعنى فأحسن:

إن كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوتك مرة ... فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربما ... زرعَ الكلامُ عداوة وضرارا

فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله في غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل في الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى

أحدًا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لا يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوي الألباب، وقد قال الأعور الشني فأجاد:

ألم تر مفتاح الفؤاد لسانه ... إذا هو أبدى ما يقول من الفم
وكأن ترى من صامت لك معجب ... زيادته ونقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومثله قول الأخطل أيضًا:

إن الكلام من الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وأخبرني أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، قال: كان بكر بن عبد الله المزني يقل الكلام: فقيل له في ذلك، فقال: لساني سبُع إن تركته أكلني، وأنشد:

لسان الفتى سبع عليه شذاته ... فالايرع من غربه فهو آكله
وما العي إلا منطق متبرع ... سواء عليه حق أمر وباطله

قال أبو الطيب قوله -شذاته-: أي حده. وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تعد حكيمًا كنت أم عليمًا. وقال الهيثم بن الأسود النخعي:

من يستعن بالصمت يومًا فإنه ... يقال له لب نهاه أصيل
وإن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة على عوراته لدليل

وكان يقال: الصمت صون اللسان وستر العي. أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب للخطفي بن بدر:

عجبت لازراء العي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

وفي الصمت ستر للعي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

والعرب تقول: عي صامت خير من عي ناطق. وكان ربيعة الرأي كثير الكلام فتكلم يومًا وأكثر، ثم قال لأعرابي عنده: أتعرف ما العي؟ قال: نعم، ما أنت فيه منذ اليوم. وقال أكثم بن صيفي: حتف الرجل بين لحييه. وأنشدني أحمد بن عبيد لأبي محمد اليزيدي:

حتف امرئ لسانه في جده أو لعبه
بين اللها مقتله ركب في مركبه
ورب ذي مزح أمي تت في نفسه في سبيه
ليس الفتى كل الفتى إلا الفتى في أدبه
وبعض أخلاق الفتى أولى به من نسبه

وكان يقال: لسانك عبدك فإذا تكلمت صرت عبده. وقال بعض الحكماء: أنا بالخيار ما لم أتكلم، فإذا تكلمت صار الكلام علي بالخيار. وقال آخر: لساني في حبس بدني ما لم أطلقه على نفسي، فإذا أطلقته صار بدني في حبس لساني. وقال آخر: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها. وقال الشعبي: أنا على اتباع ما لم أوقع أقدر مني على رد ما أوقعت. وتكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات خرجن كلهن بمعنى، فقال كسرى: أنا على قول ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل، فإنما أندم على ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن حكيت عنه ضرته، وإن لم تذكر لم تنفعه. وقال امرؤ القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

وقالت الفلاسفة: اللسان خادم القلب. وقالت العلماء: اللسان كاتب القلب إذا أملي عليه شيأ أتى به. وأنشدني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

رأيت لسان المرء راعي نفسه ... وعاذره إن لام أو زل سائره

فمن لزمته حجة من لسانه ... فقد مات راعيه وأفحم عاذره

ولئن كان السكوت جميلًا؛ لقد جعل الكلام جليلًا، ما لم يتعد المتكلم في كلامه، ويتجاوز في الكلام حدَّ نظامه، وقد أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

ما في الكلام على الأنام أثام ... بلى فيه عندي النقض والإبرام

لولا الكلام لما تبينا الهدي ... وتعطلت في ديننا الأحكام

فزنْ الكلام إذا أردت تكلما ... ودع الفضول ففي الفضول ملام

إن أنت لم ترشد أخاك إذا أتي ... فعليك منه هجنة وأثام

والنطق أفضل من صمات متهم ... جاء الكتاب بذاك والإسلام

هذا البيان فلا تكن متماريا ... فالصمت عي والكلام نظام

وليس بعيبٌ على الأديب وإن كان مستقلًا بما لديه، استحذاؤه للمتقدم في العلم عليه، ولا في سؤاله فيما غيبت معرفته عنه، مَن هو أعلى درجة في العلم منه، وأنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

تمام العمي طول السكوت وإنما ... شفاء العمى يومًا سؤالك من يدري

وروي أن أعرابيًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن عبد المطلب ماذا يزيد في العلم؟ قال: «التعلم». قال: فماذا يدل على العلم؟ قال: «السؤال».

أنشدني أحمد بن عبيد قال: أنشدني ابن الأعرابي لبشامة بن عمرو المري:

إذا ما يهتدي لُبِّي هداني ... واسأل ذا البيان إذا عميت

واجتنب المقادح حيث كانت واترك ما هويت لما خشيت

وكم يقال: من رق وجهه عن السؤال دق علمه، ومن أحسن السؤال علم، وقال الشاعر:

إذا كنت في بلدة جاهلا وللعلم ملتمسًا فاسأل
فإن السؤال شفاء العمي كما قيل في الزمن الأول

وروينا عن يونس بن الأوزاعي عن يحيي بن أبي كثير قال: لا يتعلم من استحيا وتكبر. وقال شيخ من بني العباس للمأمون: أيحسن بمثلي طلب العلم اليوم؟ فقال: نعم، والله لأن تموت طالبًا للعلم أزين بك من أن تموت قانعًا بالجهل. فقال: إلى متى يحسن بي وقد جاوزت الستين؟ قال: ما حسنت بك الحياة. وقال الخليل: ذاكر بعلمك فتذكر ما عندك وتستفيد ما ليس عندك. وقال الخليل أيضًا: كنت إذا لقيت عالمًا أخذت منه وأعطيته. وأخبرني أحمد بن عبيد قال: أخبرني ابن الأعرابي قال: أخبرنا أزهر السمان قال: قال الزهري: الأخبار ذكران لا يحبها إلا ذكرن الرجال ولا يكرهها إلا مؤنثوهم. وقال الطرماح:

ولا أدع السؤال إذا تعيت على من الأمور المشكلات
وينفعني إذا استيقنت علمي وأقوى الشك عندي البينات

فهذه جملة تحث الأدباء عن الطلب، وصدر يقنع به العقلاء من حدود الأدب، (ومنه أيضًا) ترك ممازحة الإخوان، إذا كان مما يوغر صدور الخلان، وقد اختصرت لك من ذلك جملة مقنعة، وألفاظها ممتعة، فيها لك كفاية، ولذوي الألباب نهاية، إن شاء الله تعالى.

باب النهي عن ممازحة الأخلاء والنهي عن مضاحكة الاوداء

اعلم أن من زي الأدباء، وأهل المعرفة والعقلاء، وذوي المروءة والظرفاء، قلة الكلام في غير أرب، والتجالل عن المداعبة واللعب، وترك التبذل بالسخافة والصياح، وبالفكاهة والمزاح؛ لأن كثرة المزاح يذل المرء، ويضع القدر، ويزيل المروءة، ويفسد الاخوة، ويجترئ على الشريف الحر، أهل الدناءة والشر، وقد أخبرني أحمد بن عبيد قال: أخبرني الأصمعي عن رجل من العرب، قال: خرجت في بعض ليالي الظلم، فإذا أنا بجارية كأنها صنم، فراودتها عن نفسها؛ فقالت: يا هذا، أما لك زاجر من عقل متين، إذا لم يكن لك واعظ من دين. قلت: والله ما يرانا إلا الكواكب. قالت: يا هذا فأين مكوكبها؟! فقلت: إنما كنت أمزح. فقالت:

فإيـــاك إيـــاك المـــزاح فإنـــه ... يجـري عليـك الطفـل والـدنس الخـذلا
ويـذهب مـاء الوجـه بعـد وضـاته ... ويـورث بعـد العـزّ صـاحبه ذلا

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: المزاح يستخف فؤاد الحليم ويذهب بهاء ذي القدرة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَن أكثر من شيء عرف به، ومن مازح استخف به، ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته. وكان يقال: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح؛ فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدر. وقال بعض الشعراء:

مـــازحْ أخـــاك إذا أردت مزاحـــا ... وتـــوق منـــه في المـــزاح جماحـــا
فلـــربما مـــزح الـــصديق بمزحـــة ... كانـــت لبـــاب عـــداوة مفتاحـــا

وقال عمر بن عبد العزيز: امتنعوا من المزاح تسلم لكم الأعراض. قال خلف بن صفوان: المزاح سباب النوكي. وقال محمود الوراق:

تلقى الفتى يلقي أخاه وحدته ... في لحن منطقه بما لا يغفر
ويقول كنت ممازحا وملاعبًا ... هيهات نارك في الحشا تستعر
أهبتها وطفقت تضحك لاهيا ... عما به وفؤاده يتفطر
أو ما علمت ومثل جهلك غالب ... أن المزاح هو السباب الأصغر

وقال بعض الحكماء: الخصومة تمرض القلوب، وتثبت فيها النفاق والمزاح يذهب ببهاء العز. وحدثني الباغندي قال: حدثنا الحميدي، عن سفيان، عن ابن المنكدر، قال: قالت لي أمي: يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عليهم؛ وقد كانتْ أدركتْ النبي صلى الله عليه وسلم. وأوصى يعلي بن منبه بنيه فقال: يا بني إياكم والمزاح؛ فإنه يذهب بالبهاء، ويعقب الندامة ويزري بالمروءة. وقال مسعر بن كدام الهلالي لابنه:

ولقد منحتك يا كدام نصيحتي ... فاسمع لقول أب عليك شفيق
أمَّا المزاحة والمراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتهما فلم أحمدهما ... لمجاور جاورته ورفيق

وكان سعيد بن العاص يقول: لا تمازحنَّ الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترئ عليك. وقد تواترت بالنهي عن ذلك الأخبار، وتكاثفت فيه الأشعار، ولعمري أنَّ ترك ما نهى عنه ذوو الأدب، من المداعبة واللعب، أولى بذي النهية والأرب، وقد يجب على العاقل الأديب أن ينتقي إخوانه، ويتخير أخدانه، ويفتش عن الأصحاب، ويجالس ذوي الألباب، ويستخلص أهل الفضل، وأهل المروآت والعقل؛ فإنها محنة الأدباء، وفراسة العلماء، وإنما يعرف الرجل بأشكاله، ويقاس بأمثاله، ويوسم بأخدانه، وينسب إلى أقرانه، وقد شرحت في ذلك جملة من الآثار، وما روي فيه من النتف والأخبار، فتقف عليه يبن لك ما فيه إن شاء الله تعالى.

باب الأمر باختيار الإخوان وانتخاب الأقران والأخدان

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «اختبروا الناس بإخوانهم؛ فإن الرجل يخادن من يعجبه نحوه». وقال مجاهد: إني لأنتقي الإخوان كما أنتقى أطايب التمر. وقال بعض الشعراء:

احمض مودتك الكريم فإنما ... يرعى ذوي الأحساب كل كريم
وإخاء أشراف الرجال مروءة ... والموت خير من إخاء لئيم

وقال يحيى بن أكثم:

وقارن إذا قارنت حرًّا فإنما ... يزين ويزري بالفتى قرناؤه
إذا المرء لم يختر صديقًا لنفسه ... فناد به في الناس هذا جزاؤه

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام، قال: لا تحكموا للرجل بشيء حتى تنظروا من يخادن. وقال عدي بن زيد العبادي:

عن المرء لا تسئل وأبصر قرينه ... فإن القرين بالمقارن مقتدى
إذا ما رأيت الشر يبعث أهله ... وقام جناة الشرّ للشرّ فاقعدي

وقال عتبة بن هبيرة الأسدي:

إن كنت تبغي العلم أو أهله ... أو شاهدًا يخبر عن غائب
فاختبر الأرض بأسمائها ... واختبر الصاحب بالصاحب

وقال أبو العتاهية:

من ذا الذي يخفى عليـ ... ـك إذا نظرت إلى قرينه

وعلى الفتى بطباعه سمة تلوح على جبينه

وأنشدني أحمد بن عبيد لأبي محمد اليزيدي:

ومن يصاحب صاحبًا ينسب إلى مستصحبه
بزائنات رشده أو شائنات ريبه
وراس أمر لامرئ خير له من ذنبه
وذوي النهي ليست تبا عات الهوى من أربه

وقال آخر:

ولا تصحب أخا الجهل وإيَّاك وإيَّاه
فكم من جاهل أردى حليمًا حينت آخاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وأنشدني أبو العباس الشيباني لأبي آمنة جد النبي صلى الله عليه وسلم:

وإذا أتيت جماعة في مجلس فاحذر مجالسهم ولما تقعد
وذر الغواة الجاهلين وجهلهم وإلى الذين يُذكِّرونك فاقعد

فليؤاخ الأديب أكفاءه، وليصحب نظراءه، ومن يأمن من غدره وغب أمره، وبوائق شره، وأنى يكون ذلك ولن يجتمع إلا في أهل الحياء؛ فمنهم كرم الوفاء، وإذا اجتمع الحياء والوفاء؛ صح الإخاء. وقد أخبرني مخبر عن عبد الله بن طاهر أنه قال: لا دواء لمن لا حياء له ولا إخاء لمن أراد أن يجمع بين هواء أخلائه حتى يحبوا ما أحب ويكرهوا ما كره وحتى لا يرى من أحد ختلًا ولا زللاً ولا تفريطًا. ثم أنشد:

طلبت امرأ صحيحًا مسلمًا ... نقيًّا من الآفات في كل موسم
لأمنحه ودي فلم أدرك الذي ... طلبت ومن لي بالصحيح المسلم
صبرت ومن يصبر يجد غب صبره ... ألذ وأشهى من جنى النحل في الفم
ومن لايطب نفسًا ويستبق صاحبًا ... ويغفر لأهل الود يصرم ويصرم

وقال محمود الوراق:

أليس أخاك على تصنعه ... فارب مفتضح عن النصن
ما كدت أفحص عن أخي ثقة ... ألا ذممت عواقب الفحص

وليصحب نظراءه ومن يأمن غدره، وغب أمره وبوائق شره، وأنشدني محمد بن يزيد المبرد للمطيع بن إياس:

ولئن كنت لا تصحب إلا ... صاحبًا لا تزل ما عاش نعله
لا تجده ولو حرصت وأنى ... لك بالخل ليس يوجد مثله

وقال يونس بن عبيد: أعياني شيآن أخ في الله ودرهم حلال. وقيل لبعض الحكماء: من أبعد الناس سفرًا. فقال: من كان في طلب صديق يرضاه. وقال رجل للفضيل بن عياض: أبغ رجلًا أحدثه سري وآمنه على أمري. فقال: تلك ضالة لا توجد. وأنشدني المهلبي لنفسه:

ألبس أخاك على ما كان من خلق ... واحفظ مودته بالغيب ما وصلا
فأطول الناس غمًّا من يريد أخًا ... ذا خلة لا يرى في ودّه خللا

وأنشدني أيضًا:

أقسمت بالله لا ينفك مغتفرًا ... ذنب الصديق وإن عقَّ وإن صرما
والعمر يقصر عن هجر وعن صلة ... وعن تجني وعتب يورث السقما

فترك مصارمة الخلان، والتجاوز عن هفوات الإخوان، والاستكثار من الأخلاء، ورفض معاندة الأعداء، أولى بأهل الأدب، وذوي المروءة والأرب، وأهل الفضل و الحسب، وقد حكى الأصمعي، قال: سمعت أعرابيًّا يقول لأخ له: أي أخي إن الصديق يحول بالجفاء وإني أراك رطب اللسان من عيوب أصدقائك فلا تزدهم في أعدائك. وقال عبد الله بن الحسن بن علي لابنه رضي الله عنه: إيَّاك وعداوة الرجال؛ فإنها لن تعدمك مكر حليم، أو مفاجأة لئيم. وروي أن سليمان بن داود قال لابنه: يا بني لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد. وروي أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

وأكثر الإخوان ما استطعت إنهم ... عماد إذا استنجدتم وظهور

وليس كثير ألف خل وصاحب ... وإنَّ عدوًا واحدًا لكثير

وليس شيء أمر إلى ذي اللب، ولا أحسن موقعًا في القلب، من محادثة العقلاء، ومجالسة الأدباء، فإن ذلك مما تفتق به الأذهان، وينفسح به الجنان، ويزيد في اللب، ويحيا به القلب، كما قال بعض الشعراء:

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوي العقول

وقد كنا نعدهم قليلًا ... فقد صاروا أقل من الكثير

وقيل للحرقة ابنة النعمان: ما كانت لذة أبيك؟ فقالت: إدمان الشراب ومجالسة الرجال. وقال عمرو بن مرة الجهني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وصحوت إلا من لقاء محدث ... حسن الحديث يزيدني تعليما

وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص: ما بقي مما تستلذه؟ فقال: مجالسة الرجال. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عدة من الصحابة رضي الله عنهم من الأحاديث في الحثِّ على صحبة الإخوان والرغبة في الخلان. ما إن ذكرناه طال به الكتاب، وكثر به الخطاب، وسنذكر بعض ذلك ونختصره، ونأخذ من أحسنه ما يكون فيه بلاغ إن شاء الله تعالى.

باب الحث على صحبة الإخوان والإغراء على مودة الخلان والرغبة في أهل الصلاح والإيمان

روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». وروي عن أبي عمرو العوفي قال: كان يقال أصحب من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى منك سقطة سترها، ومَن إن قلت صدَّق قولك، وإن أصبت سدد صوابك، ومن لا يأتيك بالبوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق. وقال الفضل بن غسان البصري كان يقال: اصحب من ينسى معروفه عندك. وروي عن معاوية بن قرة قال: نظرت في المودة والإخاء فلم أجد أثبت مودة من ذي أصل. وأنشدونا لعمر بن عبد العزيز، ولا يعرف له غير هذه الأبيات:

إني لأمنح من يواصلني ... مني صفاء ليس بالمذق
وإذا أخ لي حال عن خلق ... داويت منه ذاك بالرفق
والمرء يصنع نفسه ومتى ... ما تبله ينزع إلى العرق

ومثله قول زهير بن أبي سلمى:

وما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخل

ومنه قول الآخر:

والابن ينشو على ما كان والده ... إن العروق عليها تنبت الشجر

وقال المتوكل الكناني:

عندي لصالح قومي ما بقيت لهم ... حمد وذم لأهل الذم معدود
أجرى على سنة من والدي سبقت ... وفي أرومته ما ينبت العود

وأوصى بعض الحكماء أخًا له فقال: أي أخي، آخ الكريم الأخوة، الكامل المروءة، الذي إن غبت خلفك، وإن حضرت كنفك وإن لقى صديقك استزاده، وإن لقى عدوك كفَّه، وإن رأيته ابتهجت، وإن تأتيه استرحت. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا رزقك الله مودة امرئ مسلم فتشبث بها. وكان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

أبل الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسمن إخاءهم وتفقد
فإذا وجدت أخا الأمانة والتقى ... فيه اليدين قرير عين فاشدد
كم من صديق في الرخاء مساعد ... وإذا أردت حقيقة لم توجد

ومثل ذلك قول الآخر:

آخ من آخيت عن خبرته ... لا يغرنك من الناس الطرر
لا ولا الأجسام ما لم تبلهم ... إنما الناس كأمثال الشجر
منه ما ليست له منظرة ... وهو صلب عوده حلو الثمر
وترى منه أنيقًا نبته ... طعمه مر وفي العود خور

وقال آخر:

من حمد الناس ولم يبلهم ... ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسًا ... يوحشه الأقرب والأبعد

وروى أن رجلًا من عبد القيس قال لابنه: أي بني لا تؤاخ أحدًا حتى تعرف موارد أموره ومصادرها، فإذا استنبطت الخبر ورضيت منه العشرة فآخه على إقالة العثرة، والمواساة عند العسرة. وأنشدني محمد بن يزيد المبرد:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي ... على حنقي وأشرقني بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي ... مخافة أن أكون بلا صديق

وأنشدني لبشار بن بدر العقيلي:

أخوك الذي لا ينقض الدهر عهده ... ولا عند صرف الدهر يزور جانبه
فخذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ... ولا تك في كل الأمور تجانبه
إذا كنت في كل الأمور معاتبًا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقال آخر:

ومن لا يُغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وأنشدني أحمد بن يحيى لسعيد المساجقي:

فخذ عفو من أحببت لا تبر منه ... فعند بلوغ العذر رنق المشارب

وقال أبو الأسود الدؤلي:

ولست مستبقيًا أخا لك لا ... تصفح عما يكون من زلله
من ذا الذي هذبت خلائقه ... في ريثة إن أتى وفي عجله
لا أصحب الخائن اللئيم ولا ... اقطع وصل الخيل من مله
أجزيه بالعرف ما حييت ولا ... يعدم صفحي للشر من عمله

ومثله قول النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

وأجاد والله الذي يقول:

إذا ما أذاني مفصل فقطعته ... بقيت ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فان صح كان لي ... وإن هو أدوى كان فيه تحمل

وأنشدني لرجل من طيء:

أرخ على الناس ثوب سترهم ... أواجن حلو الثمار من شجره
واستبق ما لم ترد قطيعته ... بسيره ما استقر في سترة
فرب بادي الجميل منه إذا ... فتش أبدى التفتيش عن عوره
أو ستصلح الناس ما استطعت ولا ... تسرع إلى ضر مبتغى ضرره

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أحب إخواني إلي أخ إن غبت عنه عذرني وإن جئته قبلني. وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أوجب عليك حقًا فقال: الذي يسد خلتي، ويغفر ذلتي، ويقبل عثرتي. وقال مطيع بن إياس:

إنما صاحبي الذي يغفر الذنـ ... ـب ويكفيه من أخيه أقله

ليس من يظهر الملالة إفكًا ... وإذا قال خالف القول فعله
وصله للصديق يوم ويوم ... يضمر الهجر ثم ينبتّ حبله ش
وأحق الرجال أن يغفر الذنـ ... ـب لإخوانه الموفر عقله

وفي حديث سهل بن سعيد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المرء كثير بأخيه». وكتب الأحنف بن قيس إلى صديق له: أما بعد، فإذا قدم عليك أخ موافق لك فليكن منك مكان سمعك وبصرك فإن الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف. وقال خالد بن صفوان: أعجز الناس من قصر في طلب الأخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال عمر بن الخطاب: عليكم بإخوان الصدق فاكتسبوهم فإنهم زين في الرخاء، وعدة عند البلاء. وسئل بعض الحكماء: أيُّ الكنوز خير؟ فقال: أما بعد تقوى الله فالأخ الصالح.

(واعلم) أن خير الإخوان من كانت أخوته ومحبته في الله ولم تكن خلته ولا مؤاخاته لطمع قليل ولا لغرض عاجل وليس شيء بذوي العقول وأهل الديانات والفضل أفضل من إخلاص المودة في الله، ولعمري أن ذلك يحسن بجميع أهل الملل والأديان وهو أوثق عرى الإيمان. وقد روي فيه أحاديث كثيرة اقتصرنا على بعضها واختصرنا من أحسنها وفي البعض كفاية إن شاء الله.

باب صفة المتحابين في الله عز وجل

روي عن البراء بن عازب أنه قال: كنت جالسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أتدرون أيُّ عرى الإيمان أوثق؟» قلنا: الصلاة. قال: «إن الصلاة لحسنة وما هي بها» قلنا: الزكاة. قال: «وحسنة وما هي بها». فذكروا شرائع الإسلام فلما رآهم لا يصيبون، قال: «إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله». وأخبرني أبي رحمه الله بإسناد ذكره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة لعمود من ذهب عليه منائر من زبرجد تضيء لأهل الجنة كما يضيء الكوكب الدري في أفق السماء». قلنا: لمن هذا يا رسول الله؟ قال: «للمتحابين في الله». وروى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الإيمان أن يحب الرجل الرجل ليس بينهما نسب قريب ولا مال أعطاه إياه لا يحبه إلا الله عز وجل». وروِّينا عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤاخي بين الرجلين من أصحابه فتطول الليلة على أحدهما حتى يرى أخاه. وروِّينا عن جرير بن عبد الله البجلي قال: ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي. وقال عمر بن الخطاب: لقاء الإخوان جلاء الأحزان. وقال أكثم بن صيفي: لقاء الأحبة مسلاة الهم. وكان عبد الله بن مسعود يقول لأصحابه: أنتم جلاء حزني. وروي عن أبي أمامة قال: من أعطى لله ومنع وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان. وقد كانت الحكماء تقول: إن ما يجب للأخ على أخيه مودته بقلبه وتزينه بلسانه ورفده بماله وتقويمه بأدبه وحسن الذب والمدافعة عنه في غيبته.

وأنشدني أبو بكر بن أبي الدنيا:

إذا المـرء لم ينـصف أخـاه ولم يكـن ... لـه غائبًـا يومًـا كـما هـو شـاهده

فـلا خـير فيـه فـالتمس غـيره أخًـا كـريمًا عـلى وصـل الكـريم تعاهـده
فـإن غبـت يومًـا أو شـهدت فوجهـه عـلى كـل حـال أيـنما كنـت واجـده

أنشدني أحمد بن يحيى لكثير عزة:

ولـيس خلـيلي بـالملول ولا الـذي إذا غبـت عنـه بـاعني بخليـل
ولكـن خلـيلي مـن يـدوم وفـاؤه ويحفـظ سري عنـد كـل دخيـل
ولـست بـراض مـن خلـيلي بنائـل قليـل ولا أرضى لـه بقليـل

وأنشدني بعض الأدباء قال: أنشدني أعرابي ببلاد نجد:

ولـيس خلـيلي بـالمرجي ولا الـذي إذا غبـت عنـه كـان عـوزًا مـع الـدهر
ولكـن خلـيلي مـن يـصون مـودتي ويحفظنـي إن كـان مـن دوني البحـر

وأنشدني أبو العباس محمد بن يزيد النحوي:

تـود عـدوى ثـم تـزعم أننـي أودك أن الـرأي عنـك لعـازب
ولـيس أخـي مـن ودني رأى عينـه ولكـن أخـي مـن ودني وهـو غائـب

وأنشدني يوسف الأعور قال: أنشدني يعقوب بن السكيت لاوس بن حجر:

ولـيس أخـوك الـدائم العهـد بالـذي يـذمك وإن ولك ويرضـيك مقـبلا
ولكـن أخـوك النـائي مـا كنـت آمنًـا صـاحبك الأدنـى إذا الأمـر أعـضلا

وأنشدني أبو العيناء قال: أنشدني الجاحظ:

أخـوك الـذي إن سرَّك الأمـر سره وإن غبـت يومًـا ظـل وهـو حـزين
يقـرب مـن قربـت مـن ذي مـودة ويقـصي الـذي قـصيته ويهـين

وأنشدني أحمد بن يحيى:

إذا أنت رافقت الرجال فكن فتى ... كأنك مملوك لكل رفيق

وكن مثل طعم الماء عذبًا وباردًا ... على الكبد الحر لكل صديق

واعلم أن أحسن ما تألف به الناس قلوب أخلاءهم ونفوا به الضغن عن قلوب أعدائهم البشر بهم عند حضورهم، والتفقد لأمورهم وحسن البشاشة، فذلك يثبت المحبة والإخاء ومنه أحاديث قد ذكرنا بعضها وقصدنا فيما فيه قناعة.

باب البشاشة بالإخوان والصبر على تألف قلوب ذوي الأضغان

قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾. وقال عز وجل: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾. وروي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس». وسئل الحسن عن حسن الخلق فقال: الكرم والبذلة والتودد إلى الناس.

وروينا عن جرير بن عبد الله البجلي فقال: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي. وقال المنصور: إذا أحببت المحمدة من الناس بلا مؤونة فالقه ببشر وحسن.

وروي عن كعب الأحبار قال: مكتوب في التوراة ليكن وجهك سبطًا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة.

وأنشدني أبو علي العنزي:

الق بالبشر من لقيت من الناس ... جميعًا ولاقهم بالطلاقة
تجن منهم به جني ثمار ... طيب طعمه لذيذ المذاقة
ودع التيه والعبوس عن النا ... س فإن العبوس رأس الحماقة
كلما شئت أن تعاد عديـ ... ـت صديقًا وقد تعز الصداقة

أنشدني لبعض بني طيء:

خـــالق النـــاس بخلـــق واســـع ... لا تكـــن كلبًـــا عـــلى النـــاس تهـــر

والقهـــم منـــك بيـــشر ثـــم كـــن ... للـــذي تـــسمع مـــنهم مغتفـــر

وقال أبو العتاهية:

وألـــــن جناحـــــك تعتقـــــد ... في النـــــاس محمـــــدة بلينـــــه

فلـــــربما احتقـــــر الفتـــــى ... مـــــن لـــــيس في شرف بدونـــــه

وكان يقال: أول المروءة طلاقة الوجه، والثانية التوود إلى الناس، والثالثة قضاء جوائج الناس. وروي أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، إنا من أهل البادية فنحب أن تعلمنا عملًا لعل الله أن ينفعنا به. قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي وأن تكلم أخاك ووجهك إليه منطلق**».

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالاكم فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن**». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**تمام تحياتكم المصافحة**». وقال الحسن البصري: المصافحة تزيد في المودة.

وروي عن مجاهد، عن معاذ قال: إن المسلمين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كما يتحات ورق الشجر.

واعلم أنه إذا صلحت النيات، وخلصت السريرات صلحت أصفية المودة. وتثبت المحبة، واتفقت القلوب، واغتفرت الذنوب، وإذا فسدت النيات وخبثت السريرات، بطل خالص الإخاء، وانحلت عرى المودة والصفاء. وقد شرحت في ذلك بابًا تقف عليه إن شاء الله تعالى.

باب اتفاق القلوب
على مودة الصديق وقلة الخلاف على الرفيق

روي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود، وعن الوليد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف».

وقال بعض الشعراء:

إن القلوب لأجناد مجندة ... لله في الأرض بالأهواء تعترف
فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلف

وقال طرفة:

وإن امرؤ لم يعف يومًا فكاهة ... لمن لم يرد سوء بها لجهول
تعارف أرواح الرجال إذا التقوا ... فمنهم عدو يتقى وخليل

وكان يقال: المودة قرابة مستفادة. وقيل لخالد بن صفوان: أخوك أحب إليك أم صديقك؟ فقال: إن أخي إذا كان غير صديق لم أحبه. وروِّينا عن واصل مولى ابن عيينة قال: كنت مع محمد بن واسع بمرو فأتى عطاء بن مسلم ومعه ابن عثمان فقال: عطاء لمحمد: أي عمل في الدنيا أفضل؟ قال: صحبة الأصحاب ومحالفة الإخوان إذا اصطحبوا على الأمن والتقوى فحينئذ يذهب الله بالخلف من بينهم فواصلوا وتواصلوا.

وروي عن بشر بن السري قال: ليس من البر أن تبغض ما أحبه حبيبك. وقال عبد الله بن صالح: اجتمعت أنا ومحمود بن نصر الحارثي وعبد الله بن المبارك

وفضيل ابن عياض فصنعت لهم طعامًا فلم يخالف محمد بن نصر علينا في شيء أصلًا فقال له عبد الله: ما أقل خلافك. فقال محمد:

وإذا صاحبت فاصحب صاحبًا ذا حياء وعفاف وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وقال آخر:

هموم رجال في أمور كثيرة وهمي من الدنيا خليل مساعد
إذا غبت عنه لم أغب عن ضميره كأني مقيم بين عينيه شاهد
نكون كروح بين جسمين فرقًا فجسماهما جسمان والروح واحد

وأنشدني آخر:

وألفين كالغصنين ضمهما الهوى فروحاهما روح وقلباهما قلب
إذا غاب هذا ساعة عن خليله تجلاه يومًا عند فرقته كرب
فيا من رأى ألفين صانا هواهما فهذا بذا صب وهذا بذا صب

وأنشدت للحكمي:

روحها روحي وروحي روحها ولها قلب وقلبي قلبها
فلنا روح وقلب واحد حسبها حسبي وحسبي حسبها

ولعمري أن ذلك لحسن جميل والذي قيل في ذلك كثير طويل، وقد نهي قوم عن استعمال الميل في المودة، واعلم أن ذلك مع دوام المحبة، وصفاء المودة لحسن غير مدفوع غير أنه قد نهى عن استعمال الميل في المودة، وكثرة الإفراط في المحبة، وإدمان الزيارة في كل يوم وساعة لموضع الملل والسلوان، الذي هو طبع الإنسان، وأمرنا بالقصد في كل الأمور، بدوام المحبة والسرور، وقد ذكرت بعض ذلك وفيه مقنع.

باب النهي عن استعمال الإفراط في حب الصديق

روي عن بعض الحكماء أنه قال: لا يُفرط الأديب في محبة الصديق ولا يتجاوز في عداوة العدو؛ فإنه لا يدري متى تنتقل عداوة العدو صداقة. وحكي عن علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- أنه قال: أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا.

ومن أمثال أكثم بن صيفي: الانقباض من الناس مكبسة للعداوة، وإفراط الأنس مكبسة للملال. قال أبو عبيدة: يريد أن الاقتصاد أدنى إلى السلامة. قال أبو زيد: من أمثالهم لا تكن حلوًا فتسترط ولا مرًّا فتعفى أي تلفظ من المرارة.

ومثله قول مُطَرِّف بن الشِّخير: الحسنة بين السيئتين وخير الأمور أوساطها. وكان يقال: لا تهذر في منطقك، ولا تخبر بذات نفسك، ولا تغتر بعدوك، ولا تفرط في حب صديقك ولا تفزع إلى من لا يرحمك ولا تألف من لا يرشدك ولا تبغض من ينصح لك؛ فإن شرَّ الأخلاق ملالة الصاحب وتقريب المتباعد.

وأنشدني أحمد بن يحيى للمقنع الكندي:

وكن معدنًا للحلم واصفح عن الأذى ... فإنك راء ما علمت وسامع

وأحبب إذا أحببت حبًّا مقاربًا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع

وابغض إذا أبغضت غير مباعد ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

وأنشدني أحمد بن يحيى لسعيد المساحقي:

فهونـــك في حـــب وبغـــض فـــربما يرى جانـب مـن صـاحب بعـد جانـب

وسمعت عبد الله بن عبد الله بن طاهر ينشد هذين البيتين وأحسبهما له:

إذا أنـــا أكرمـــت اللئـــيم فعـــدني مهينًـــا لـــه حققـــت باطـــل مـــا عـــدا

فـــإن صـــلاح الأمـــر يرجـــع كلـــه فـــسادًا إذا الإنـــسان جـــزت بـــه الحـــدا

وهذا طويل يقنعك منه القليل، وأما طول الزيارة فقد يجب على أهل الصداقة مع المداومة عليها وكثرة الجنوح إليها، فإن ذلك يضعف الحب ويضجر المزور، ويعدم السرور، ويوقع البدل ويبدي الملل، وقد شرحنا في ذلك بابًا فاعرفه وقف عليه إن شاء الله تعالى.

باب الأمر باغباب زيارة الأحباب والنهي عن مداومة غشيان الأصحاب

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «زر غبًّا تزدد حبًّا». وقال بعض الحكماء: من كثرت زيارته قلت بشاشته. وقال آخر: من أدمن زيارة الأصدقاء؛ عدم الاحتشاد عند اللقاء.

وقال آخر:

اقلل زيارتك الصديـ ـق تكون كالثوب استجده
إن الصديق يمله أن لا يزال يراك عنده

وقال آخر:

عليك بإقلال الزيارة إنها تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت القطر يسأم دائبًا ويسئل بالأيدي إذا هو أمسكا

وأنشدني لأبي تمام حبيب بن أوس:

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم سرمد

وأنشدني لإبراهيم بن المهدي:

إني كثرت عليه في زيارته والشيء مستثقل جدًّا إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى في طرفه قصرًا عني إذا نظرا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لا تجعلن أحدًا عليك إذا أحببته وهويته ربا

وصل الصديق إذا كلفت بحبه ... واطلوا الزيارة دونه غبا
فلذاك خير من مواصلة ... ليست تزيدك عنده قربا
لا بل يملك عند دعوته ... فيقول آه وطال مالبا

وقال آخر:

أغب الزيارة لما بدا ... له الهجر أو بعض أسبابه
وما صد هجرًا ولكنه ... طريد ملالة أحبابه

وكتب بعض الظرفاء رقعة وطرحها في مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر حيث حرم القيعان:

عزمات الأمير أصلحه الله ... به بحسن الإرشاد والتوفيق
باعدت بيننا وبين عجاب ... ومديل ومنصف وصديق

فوقّع محمد في ظهر الرقعة:

حسن رأى الأمير في العشاق ... وفر الحظ في بعاد التلاقي
خاف أن يحدث الوصال ملالا ... فتلافى الهوى ببعض الفراق

وأنشدني بعض الأدباء:

إني رأيتك لي محبًّا ... وإليَّ حين أغب صبا
فهجرت لا لملالة ... حدثت ولا استحدثت ذنبًا
إلا لقول نبينا ... زوروا على الأيام غبا
ولقوله من زار غبا ... با منكم يزداد حبًّا
وهجرت حين هجرت كي ... ازداد بالهجران قربا
الله يعلم أنني ... لك أخلص الثقلين قلبا

أرعـــى لـــك الـــود القديـــ ـــم وإن جنيـــت عـــلى حربـــا

ومن ذلك ما روي أن العتابي دخل على يحيى بن خالد البرمكي وكانت له جارية يقال لها خلوب تجالس الأدباء ويناقض الشعراء فقال لها: سليه لإبطائه عنا جائزة فقالت له: قل على هذه القافية:

إذا شـــئت أن تقـــلي فـــزر متـــواترًا وإن شـــئت أنـــت تـــزداد حبًّـــا فـــزر غبـــا

فأنشأ يقول:

بقيـــت بـــلا قلـــ ، لأني هـــائم فهل مـــن معيـــب يـــا خلـــوب بكـــم قلبـــا
حلفـــت لهـــا بـــالله أنـــك منيتـــي فكـــوني لعينـــي حيـــث مـــا نظـــرت نـــصبا
عـــسى الله يومًـــا أن يريـــنيـــك خاليًـــا فـــأجني بلحظـــي مـــن محاســـنكم عجبـــا
يقولـــون لا تكثـــر زيـــارة صـــاحب فإنـــك إن أكثرتـــه كـــره القربـــا
وكيـــف يطيـــق الـــصب ســـلوان حبـــه إذا كـــان مـــشعوفًا قـــد اســـتشعر الكربـــا
وقـــد قـــال بيتًـــا مـــا ســـمعت بمثلـــه خـــلي مـــن الأحـــزان لم يـــذق الحبـــا
إذا شـــئت أن تقـــلي فـــزر متـــواترًا وإن شـــئت أن تـــزداد حبًـــا فـــزر غبـــا

فقال: لله أبوك أحسنت خذ بيدها فهي لك، وأمر له بألف درهم.

واعلم أن كل ما رسمناه من هذه الأبواب وذكرناه وشرطناه على الأدباء ووجدناه داخلًا في باب حدود الأبواب على ما أصبناه غير خارج منه ولا منفصل عنه وأن يكون الأديب عاقلًا واللبيب كاملًا حتى تكون له مودة قد قرنها بأدبه، وثابر عليها في طلبه، فإذا جمع ذلك رهب منه الأعداء ورغب فيه الأولياء، وسنذكر من أنشأته المروة فيكون فيه بلاغ وهداية إن شاء الله تعالى.

باب شرائع المروة وصفتها

اعلم أن المروة هي عماد الأدباء وعتاد العقلاء يرأس بها صاحبها ويشرف بها كاسبها ولا شيء أزين بالمرء من المروة؛ فهي رأس الظرف والفتوة، وقد قال بعض الحكماء: الأدب يحتاج معه إلى المروة والمروة لا يحتاج معها إلى الأدب وربما رأيت ذا المروة الخامل، وذا سخاء الجاهل، قد غطت مروته على عيوبه، وستره سخاؤه، من معيبه وأهل المروات محسودة أفعاله متبعة أحوالهم وقل ما رأيت حاسدًا على أدب وراغبًا في أرب.

من ذلك ما حكي عن محمد بن حرب أنه قال: كنت على شرطة جعفر بالمدينة، فأتيت بأعرابي من بني أسد يستعدي عليه فرأيت رجلًا له بيان يحتمل الصنيعة فرغبت في اتخاذها عنده فتخلصته، ثم لم يلبث أن ردَّ إليَّ فقلت: حماس. فقال لي: حماس والله. قلت: ما أرجعك. قال: الشر. وما قاله رجل منا يقال له خالد فأنشدني:

عـــادوا مروتنـــا فظلـــل ســـعيهم ... ولكـــل بيـــت مـــروة أعـــداء

لـــسنا إذا عـــد الفخـــار كمعـــشر ... أزري بفعـــل أبـــيهم الأبنـــاء

قال: فتخلصته ثانية. وقيل لبعض حكماء الفرس: أيُّ شيء للمروة أشد تهجينًا؟ فقال: للملوك صغر في الهمة وللعامة الصلف وللفقهاء الهوى وللنساء قلة الحياء وللعامة الكذب، والصبر على المروة سعب وتحملها عبء.

وقد قال خالد بن صفوان: لولا أن المروة اشتدت مؤونتها وثقل حملها ما ترك اللئام للكرام منها شيئًا؛ ولكنه ما ثقل محملها واشتدت مؤونتها حاد عنها اللئام

فاحتملها الكرام. وقال بعضهم: المكارم لا تكون إلا بالمكاره ولو كانت خفيفة لتناولها السفلة بالغلبة. وقال ابن عمر: ما حمل رجل حملًا أثقل من المروة. فقال له أصحابه: صف لنا ذلك. فقال: ما له عندي حد أعرفه إلا أني ما استحييت من شيء قط علانية إلا استحييت منه سرًّا.

وقام رجل من بني مجاشع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ألست أفضل قومي؟ فقال: «**إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروة، وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك دين فلك تقى وإن كان لك تقى فلك دين**».

وروي الهلالي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من ثقيف: «ما المروة فيكم؟» قال: الصلاح في الدين وإصلاح المعيشة وسخاء النفس وصلة الرحم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**كذلك هي فينا**». وقال عمر بن الخطاب: المروة الظاهرة الثياب الطاهرة يعني النقية من الذنوب. وقيل للأحنف: ما المروة؟ قال: إصلاح المعيشة واحتمال الجريرة.

وقال معاوية لصعصعة بن صفوان: ما المروة؟ قال: الصبر على ما ينوبك والصمت حتى تحتاج إلى الكلام. وقال محمد بن علي بن الحسين: كمال المروة الفقه في الدين والصبر على النوائب وحسن تقدير المعيشة. وقال معاوية لرجل من عبد القيس: ما تعدون المروءة فيكم؟ قال: العفة والحرفة. وقيل لأبي زهرة: ما المروة؟ قال: إصلاح الحال والرزانة في المجالس والغداء والعشاء بالأفنية.

وقال عمر بن الخطاب: حسب المرء ماله وكرمه دينه وأصله عقله ومروته خلقًا. وقال علي بن أبي طالب: مروءة الرجل حيث يضع نفسه. وقال عبد الله بن

سميط بن عجلان: سمعت أيوب السجستاني يقول: لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان؛ العفة عن الناس والتجاوز عنهم. وقال مسلمة بن عبد الملك: مروءتان ظاهرتان؛ الرياسة والفصاحة.

وكان يقال: ثلاث يفسدون المروءة؛ الالتفات في الطريق والشج والحرص. وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن في مباكرة الغداء ثلاث خلال؛ يطيب النكهة ويطفئ المرة ويعين على المروة. قيل: وما إعانته على المروة. قال: لا تتوق النفس إلى طعام غيره.

وقال سلم بن قتيبة: لا تتم مروءة الرجل حتى يصبر على مناجاة الشيوخ الدرد. وسأل ابن زياد رجلًا من الدهاقين: ما المروءة فيكم؟ قال: أربع خصال؛ أن يعتزل الرجل الريبة فلا يكون في شيء منها فإنه إذا كان مريبًا كان ذليلًا، وأن يصلح ماله فإن من أفسد ماله لم تكن له مروءة، وأن يقوم لأهله بما يحتاجون إليه حتى يستغنوا به عن غيره فإن من احتاج أهله إلى الناس لم تكن له مروءة، وأن ينظر فيما يوافقه من الطعام والشراب فيلزمه فإن المروءة ألا يخلط على نفسه في مطعمه ولا مشربه.

وكان يقال: ثلاث من المروءة تعاهد الرجل إخوانه وإصلاح معيشته وإقالته في منزله.

وسئل العتابي عن المروءة فقال: إخفاء مالا يستحي من إظهاره ومواطأة القلب اللسان. ويروى عن عبد الله بن بكر السهمي أن عبد الملك بن مروان دخل على معاوية وعنده عمرو بن العاص فجلس مليًّا ثم انصرف، فقال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى وأخلقه أن يبلغ. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إن هذا أخذ بخلائق

أربع وترك ثلاثًا؛ أخذ بأحسن الحديث إذا حدث وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث وبأيسر المؤونة إذا خولف وبأحسن البشر إذا لقى، وترك مزاح من لا يوثق بعقله ولا دينه وترك مخالفة لئام الناس وترك من الكلام ما يعتذر منه.

(فهذه) جملة شرائع المروءة لا يقدر على القيام بأدنى المفترض فيها إلا ذوو العقول الفاضلة والآداب الكاملة. (واعلم) أن من المروءة أيضًا عشرة خصال لا مروءة لمن لم يكن فيه: الحلم والحياء وصدق اللهجة وترك الغيبة وحسن الخلق والعفو عند المقدرة وبذل المعروف وإنجاز الوعد، وفي تبيينهن أخبار تحث على استعمالهنَّ وآثار تدعو إلى المثابرة عليهنَّ، وأنا ذاكر بعض ذلك إن شاء الله وبه القوة.